زمن البراءة

فور دخولنا عرفنَ ما ندينُ به فزِدْنَنا ترحيباً، وإن لمَحْتُ في عينيْ غير واحدةٍ شيئاً من التساؤل المشروع والمبرر طبعاً، فما الذي تفعله سُنّيتان في حسيْنية وإن كانت الدعوة عامة..؟

في البحرين خاصيةٌ غريبة؛ الناس هناك يعرفون مذهب الآخرين من أشكالهم فقط. قد تستطيع أن تميّز أتباع المذهبيْن هناك من اللهجة لأن معظم شيعة البحرين لهم لهجة تميل إلى الكربلائية، ولكن البحرينيين يميزون بعضهم بعضاً من غير أن ينبس الآخر ببنت شفة.

أخذنا رقمينا من بين الأرقام التي تقف إحداهن بصندوقٍ مليءٍ بها وسط صفِّ المُستقبِلات تقدمها لكل من تدخل -ويبدو أنها أرقام سحبٍ لجوائز- وجلسنا وسط السيدات وأنا في شوقٍ لسماع المدائح لحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم.

كنا في عام ٢٠٠٢ وكنت -في لحظة شوقٍ للحبيب المصطفى- قد طلبت من صديقتي البحرينية التي تستضيفني أن تبحث لي عن أيّ مولدٍ نبويّ أستطيع حضوره قبل عودتي، ففي البحرين لا ترتبط إقامة الموالد بمولد النبي صلى الله عليه وسلم الفعلي. عادت صديقتي في اليوم التالي من دوامها وهي تخبرني أن إحدى زميلاتها أخبرتها بمولدٍ سمعت أنه سيقام مساءً للسيدات في إحدى الحسينيات. وفي المساء كانت السيارة تجوب بنا شوارع جديدة لتقف بنا في النهاية أمام باب تلك الحسينية.

بيْد أنه بدا لي أن السيدة مذيعة الحفل ومحدثته، تتكلم عن شخصٍ آخر. وقد أسمته كما في اللافتات التي وُضعت في أرجاء المكان "محمد العسكري"، ولم تسمه محمد بن عبدالله بن عبد المطلب... هل يُلقب النبيّ بالعسكريّ أحياناً.. لجهاده مثلاً؟؟ هل هناك شيءٌ لا أعرفه عن الرسول؟؟؟! وكانت عيناها تغرورقان بالدموع وهي تدعو الله تعالى أن يعجل فرجه... ما معنى هذا؟

ثم عندما أوردت السيدة حديثاً جميلاً عن الرسول صلى الله عليه وسلم تأكدت أنها كانت قبلها تتحدث عن شخصٍ آخر لا أعرفه، وأن المناسبة مناسبة مولد ذلك الشخص الآخر الذي علمت بعد عدة سنوات أنه الملقب بالمهدي المنتظر.

غير أن الأمسية كانت جميلة رغم أنه لم يكن مولداً للنبي صلى الله عليه وسلم كما كنت أظن وأتمنّى، وقدّرت للسيدة مجاملتنا بذكر "إخوتنا السنة" بمودةٍ في سياق حديثها، ما يثبت أنها حقاً عرفت مذهبنا بمجرد أن رأتنا كما توقعت. واستمتعتُ كثيراً بروايتها لحديث الكساء، وبالأغاني الحلوة التي غناها الصغار. ثم جاء وقت السحب ففاز رقمي بمنبِّهٍ حاولت الإحتفاظ به أطول مدة ممكنة على سبيل ذكرى تلك الأمسية اللطيفة..

هذه القصة عادت إلى ذهني بتفاصيلها بعد أن قرأتها من ذاكرتي قراءةً ثانيةً في ضوء الأحداث الراهنة، إذ لاحظت تفاصيل ما بين السطور التي لم أكن لألاحظها آنذاك.. في قراءتي الجديدة لاحظت أن صديقتي لم تخص زميلاتها من السنّة بالسؤال، وأن زميلتها التي التبس عليها الأمر فظنت أنها تسأل عن مولد المهدي المنتظر لم تبخل عليها بخبر ذلك الاحتفال وهي تعلم أنها سنية، ولم نتردد لا أنا ولا صديقتي لحظةً في الذهاب إلى حسينية، واللاتي استقبلننا هناك استقبلننا بكل حفاوة، مع أنه لو حدث الأمر هذه الأيام لاختلف الوضع تماماً، ولما كانت ردود الفعل من أيّ من أطراف القصة كردود الفعل آنذاك..

لقد كان التعايش رائعاً بكل المقاييس بين الفئتين في البحرين وتقريباً في كل مكان في العالم، فما الذي حدث؟

أيُّ يدٍ مخرّبةٍ دخلت بيننا؟

ليت شعري أين ذهب زمن البراءة؟

دعاء خليفة